

ولا يكاد الصبي يبلغ المدرسة ويستقر فيها أياما حتى يشعر بأن أمامه غاية يجب أن يبلغها ، وهي أن يؤدي الامتحان وينجح فيه .

يشعر بهذا في المدرسة من معلمه ومن أترابه ، ويشعر بهذا في البيت من أبويه اللذين قد يجهلان من أمور التعليم كل شيء الا أنه ينتهي الى الامتحان .

وإذا فالصبي منذ يدخل المدرسة مُوجَّه الى الامتحان أكثر مما هو مُوجَّه الى العلم ، مهياً للامتحان أكثر مما هو مهياً للحياة . وإذا فليس المهم عند الصبي ان ينتفع بالدرس ، وان يجد فيه اللذة والمتعة ، وان يستزيد منهما ، وانما المهم أن يستعد للامتحان والنجاح فيه ليتفوق على أترابه أو ليحتفظ بمكانته بينهم ، ويرضي أبويه ويسرهما ويحقق ما يعقدان به من أمل ، وينوطان من رجاء ، وليظفر بما يمنيانه من مكافأة وجزاء .

والصبي ليس مبالغاً في شيء من هذا ، وانما هو صورة لرأي الأسرة ورأي المعلمين ورأي الأتراب ورأي وزارة المعارف بنوع خاص . وإذا فقد استحالَت المدرسة الى مصنع بغيض يهيء التلاميذ للامتحان ليس غير . وقد يجوز أن يجني التلاميذ من هذا المصنع شيئاً آخر غير الاستعداد للامتحان ، ولكنني أؤكد لك أن هذا ليس من عمل المدرسة ، وانما هو نتيجة لطبيعة الأشياء ، فطبيعة العقل الانساني والملكات الانسانية كلها انها تتأثر بما تزاول من الأشياء ، وطبيعة العلم مهما يكن ممسوخاً جافاً مشوهاً أنه يفيد الملكات الانسانية اذا اتصل بها .

فالتلاميذ يتعلمون في المدرسة أحياناً ولكنهم يتعلمون برغمهم وبرغم المدرسة وبرغم المعلمين .

وعلى هذا النحو تمضي حياة التلميذ منذ يدخل المدرسة الابتدائية الى أن يخرج من المدرسة الثانوية . فأما التعليم العالي فله قصة أخرى .

وأظنك توافقني على أن هذا كله شيء وأن التعليم شيء آخر ، وأظنك توافقني أيضاً على أن تصوّر الامتحان على هذا النحو قلباً للأوضاع ، وجعل التعليم وسيلة بعد أن كان غاية ، وجعل الامتحان غاية بعد أن كان وسيلة . وحسبك بهذا فساداً للتعليم . ولكن هذا لا يفسد التعليم وحده كما قلت ، بل هو يفسد العقل والخلق أيضاً . وما رأيك في الصبي الذي ينشأ على اعتبار الوسائل غايات والغايات وسائل ، فيفهم الأشياء فهماً مقلوباً ، ويحكم عليها حكماً معكوساً؟! أتظنه يستطيع أن يفهم أموره الدراسية هذا الفهم المقلوب ويحكم عليها هذا الحكم المعكوس ، ثم يفهم أمور الحياة فهماً صحيحاً ويحكم عليها حكماً مستقيماً؟! كلا ، لأن الله لم يجعل لرجل قلبين في جوفه ، ولا عقليين في رأسه ، وانما جعل له قلباً واحداً وعقلاً واحداً ، فاذا أفسدت المدرسة هذا العقل وذلك القلب فقد أفسدت التلميذ كله ، وقضت عليه بأن يفكر تفكيراً معوجاً وأن يشعر شعوراً مختلطاً وأن يسير في الحياة سيرة ملائمة لهذا الاختلاط وذلك الاعوجاج .